**تسبيح المؤمنين في ضوء القرآن الكريم([[1]](#footnote-2))**

 بسم الله الرحمن الرحيم, والحمد لله رب العالمين, والصلاة والسلام على خاتم النبيين, وعلى آله وصحبه أجمعين, وبعد:

 فإنّ الله قد شَرع لعباده عبادات عظيمة, ومِن أجلّ العبادات التي أكّد عليها القرآن الكريم في كثير مِن آياته عبادةُ الذِّكر، ومِن أعظم أذكار منزلةً تسبيح **الله** , وإنما كانَ التسبيحُ مِن أحبِّ الكلامِ إلى اللهِ ؛ لأنه يَدلُّ على تنـزيهَ الربِّ وتقديسَهُ عن كلِّ ما لا يليقُ بهِ، ولمّا كان الجم الغفير من المسلمين يدركون مكانة التسبيح, لكنّهم يغفلون عن مدلوله الصحيح, لذا جاء هذا المقال؛ ليتناول منهج المؤمنين الصادقين في شدة حرصهم على التسبيح.

**\*مفهوم التسبيح**

 **التسبيح** لغة: مصدر سبّح, وعرّفه الأزهري بأنه: تنزيه الله من السوء, وتبعيدُه منه، من قولك: سبَحتُ في الأرض: إذا أبعدتَ فيها، ومنه قوله : {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[يس: 40].([[2]](#footnote-3))

 أمّا **التسبيح** في اصطلاح المفسرين، **فقد عُرِّف بتعاريف عديدة؛** وأجمع تعريف **له** أنّه: "تنزيه الله تعالى اعتقاداً وقولاً وعملاً عمّا لا يليق بجنابه"[([[3]](#footnote-4))](http://www.alukah.net/sharia/0/75207/#_ftn1).

 وهكذا يتّضح بأنّ التسبيح في أصله اللغوي دائماً يدلّ على معانٍ لا تُصرف إلا لله وحده؛ لأن المبالغة في التعظيم لا تليق لغير الله , لذا فإنّ كلمة (سبحان الله) تتضمن أصلاً عظيماً من أصول التوحيد، وهو إبعاد القلوب والأفكار عن أن تَظنّ بالله نقصا.

 وقد ورد التسبيح بمعنى تنزيه الله عن كلّ سُوء -سواء في القرآن الكريم أو الأحاديث الشريفة أو آثار السلف الصالح-, مِن ذلك قوله :} مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُون{[المؤمنون: 91].

 **\*نماذج من تسبيح المؤمنين في آيات القرآن الكريم**

 التسبيح شأن الرسل عليهم السلام ومَن سار على دَربهم من المؤمنين, وجاء التنويه بتسبيح المؤمنين في عدّة مواطن في الذكر الحكيم, وهي:

 ففي الموطن الأول يأمُر الله المؤمنين بتسبيحه, كما في قوله : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا \* وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}[الأحزاب: 41- 42].

 وفي الموطن الثاني يَقرِن الله تسبيح مَن آمَن به بالدعاء, كما في قوله :} ربنا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانك فقِنا عذاب النار}[آل عمران: 191].

 وفي الموطن الثالث يَقرِن الله تسبيح من آمن به بحمده, كما في قوله :} إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكِّروا بها خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبّحُوا بحمد ربهم وهُم لا يستكبرون}[السجدة: 51].

 وفي الموطن الرابع يحكي القران قصة أصحاب الجنة, كما في قوله : {قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29)}[القلم: 28، 29].

 ويعلِّق ابن عاشور على الآية فيقول:" والاستفهام تقريري ولولا حرف تحضيض, والمراد بـ(تسبّحون): تنزيه الله عن أن يُعصى أمْره في شأن إعطاء زكاة ثمارهم .وكان جوابهم يتضمن إقراراً بأنه وعَظهم فعصوه، ودلّوا على ذلك بالتسبيح حين ندمِهم على عدم الأخذ بنصيحته فقالوا: (سبحان ربّنا إنّا كنا ظالمين (أرادوا إجابة تقريره بإقرار بتسبيح الله عن أن يُعصى أمْره في إعطاء حق المساكين؛ فإنّ مِن أصول التوبة تدارُك ما يُمكن تداركه، واعترافهم بظلم المساكين من أصول التوبة؛ لأنه خبرٌ مستعمل في التندم، والتسبيح مقدِّمة الاستغفار من الذنب, قال تعالى: }فسبِّح بحمد ربّك واستغفرْه إنه كان تواباً}[النصر: 3], وجملة) إنا كنا ظالمين) إقرار بالذنب، والتأكيد لتحقيق الإِقرار والاهتمام به" ([[4]](#footnote-5)).

 وفي الموطن الرابع يذكُر الله تسبيح المؤمنين في سياق إفاضة النِّعم على عباده، كما في قوله :} لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ{[الزخرف: 31].

 وفي الموطن الخامس ينوِّه الله بتسبيح المؤمنين مِن أهل الجنة، حيث أخبر عنهم بقوله: }دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهُمَّ{[يونس: 10].

 وفي الموطن السادس يمدَح الله المؤمنين لتسبيحهم لذاته العلية, كما في قوله : }فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ{[النور: 36].

 والمراد بقوله: "(يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَال): يصلّي له في هذه البيوت بالغُدُوات والعشيات رجال",([[5]](#footnote-6)) ويطلق على الصلاة تسبيحاً في القرآن الكريم والسنة المطهرة كثيرا؛ فالصلاة تنزيه فعلي كما أنّ التسبيح باللسان تنزيه قولي.

 ويشير القرآن الكريم إلى عظمة عبادة التسبيح, فيبيِّن أنّ مِن حِكم إرسال النبي محمد القيام بتسبيح الله وتنزيهه مع المؤمنين، كما في قوله :} إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا \* لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}[الفتح: 8-9].

 **\*الفوائد المستنبَطة مِن عرض النماذج القرآنية المتضمِّنة لتسبيح المؤمنين**

 المتأمل فيما سبق مِن توجيه الله للمؤمنين إلى تسبيحه في عدّة آيات, يجد أنه يتضمن دروساً بليغة, ومِن أبرزها ما يأتي:

**1-اختصاص التسبيح بالله وحده:** فإنّ المتأمِّل في آيات القرآن الكريم يَلحظ أنّ التسبيح -سواء جاء باللفظ أو بالاعتقاد- حقٌّ خالص مِن حقوق الله , لذا لا يجوز أن يُنعَت به أحدٌ سِواه أيّاً كان؛ وذلك لأن لله وحده صفات الكمال المطلَق, مِن هنا لا يُذكَر لفظُ التسبيح في آيات القرآن الكريم إلا مضافاً إلى لفظ الجلالة أو اسم من أسماء الله الحسنى, أو إلى صفة من صفاته أو إلى ضمير عائد إليه , ومِن شواهد ذلك قوله على لسان المؤمنين: }سبحانك فقنا عذاب النار{[آل عمران: 191].

 **2-فضل التسبيح:** فإنّ التسبيح من أجلّ العبادات القولية, وله منزلة جليلة في القرآن الكريم والسنّة المطهرة, ومما يدلّ على فضله, أنّ الله أَمَر به عباده عامّة في مواضع عديدة في كتابه العزيز, وفي استخدام القرآن الكريم للتسبيح بصيغة فِعل الأمر خاصة دلالة بيّنة على أهمية التسبيح, وجلالة منزلته, ومما يوضح منزلته أنّ الله جَعله مِن حِكم بعثة النبي محمد , كما جعله عبادة أهل الجنة, إضافة إلى مجيئه في كتابه العزيز مقترناً كثيراً بألفاظ الذِّكر الأخرى, حيث قرن ها هنا التسبيح بالإيمان, كما في قوله : {لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}[الفتح: 9], وقرَنه بالدعاء والحمد أيضاً,

**3-أزمنة التسبيح:** ويستفاد أيضاً أنّ التسبيح عبادة تُشرَع في كلّ وقت, لكنّها تتأكد في الأوقات الفاضلة, وفي مجيء الأمر بالتَّسبيح في القرآن الكريم في أزمنة مختلفة كالبُكرة وهو أوّل النهار, والآصال وهو آخرُه؛ إشارة إلى الأمر بإدامة التسبيح في جميع الأوقات، وإيذاناً باختصاص بعض أزمنة التسبيح بمزيد مزية على غيرها, ولعلّ الحكمة من مزيد تخصيص زمَني الصباح والمساء بالتسبيح كثيراً؛ لِتكرُّرهما, ولِشرفهما؛ كونهما آيتَين عظيمتَين من آيات الله ، ولسهولته فيهما, ولهذا شُرعت أذكار الصباح والمساء عند وقت الصباح ووقت الغروب, فحريّ بالمؤمن أن يرطِّب لسانه بالتسبيح في كلّ حين؛ لينال الأجر العظيم من الله .

 وبعد؛ فهذا ما يسّر الله الوصول إليه في هذا المقال المتواضع، وأسأله أن يجعلنا من المسبِّحين, وصلى الله وسلم على نبينا محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين, والحمد لله ربّ العالمين.

1. الأستاذ حمزة عبد الله سعادة شواهنة (باحث في الدراسات الإسلامية- فلسطين). [↑](#footnote-ref-2)
2. انظر, الأزهري, تهذيب اللغة, (سَبَحَ), (4/ 195). [↑](#footnote-ref-3)
3. أبو السعود, إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم, (8/ 203). [↑](#footnote-ref-4)
4. ابن عاشور, **التحرير والتنوير**, (29/ 86) - (29/ 87). [↑](#footnote-ref-5)
5. الطبري, **جامع البيان**, (19/ 191). [↑](#footnote-ref-6)